دمك كى تؤدى مهمتها ، كذلك فى المعانى يوضح الحق لكم : سيكون منكم من يفعل كذا وكذا ، حتى تعدُّوا أنفسكم لاستقبال هذه الأشياء إعداداً ولا تفاجأون به ؛ لأنكم إن فوجئتم به فقد تنهارون . فإياكمْ أن تتأثروا بهذا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

ومادة : « شرى » ومادة « اشترى » كلها تدل على التبادل والتقايض ، فأنت تقول : أنا اشتريت هذا الثوب بدرهم ؛ أى أنك أخذت الثوب ودفعت الدرهم ، وشرى تأتى أيضا بمعنى باع مثل قول الحق :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فالجماعة الذين وجدوا سيدنا يوسف عليه السلام فى الجب كانوا فيه من الزاهدين . وبعد ذلك باعوه بثمن بخس ، إذن فـ « شرى » من الأفعال التى تأتى بمعنى البيع وبمعنى الشراء ؛ لأن المبيع والمشترى يتماثلان فى القيمة ، وكان الناس قديماً يعتمدون على المقايضة فى السلع ، فلم يكن هناك نقد متداول ، كان هناك من يعطى بعض الحب ويأخذ بعض التمر ، فواحد يشترى التمر وآخر يشترى الحب ، والذى جعل المسألة تأخذ صورة شراء وبيع هو وجود سلع تباع بالمال .

وما الفرق بين السلع والمال ؟. السلعة هى رزق مباشر والمال رزق غير مباشر .

فأنت مثلاً تأكل رغيف الخبز وثمنه خمسة قروش ، لكن لو عندك جبل من ذهب وتحتاج رغيفا ولا تجده ؛ أينفعك جبل الذهب ؟ . لا . إذن فالرغيف رزق مباشر ؛ لأنك ستأكله ، أما الذهب فهو رزق غير مباشر ؛ لأنك تشترى به ما تنتفع به . وبذلك نستطيع أن نحدد المسألة ؛ فالسلعة المستفاد منها مباشرة هى رزق مباشر ، ندفع ثمنها مما لا ننتفع به مباشرة ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعقد مع المؤمن به صفقة فيها بيع وشراء . وأنتم تعلمون أن البائع يعطى سلعة ويأخذ ثمنا ، والشارى يعطى ثمنا ويأخذ سلعة ، والحق يقول هنا :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء ، ومنزلة الشهداء ؛ ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وقال بعدها :

﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة ، فكل منا فى حياته يجب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه ، ولذلك يقول فى آية أخرى :

﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فاطر)

هنا أيضاً تجارة ، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أن تقارن الشىء الذى تعطيه بالشىء الذى تأخذه ثم افرق بينهما ، ما الذى يجب أن يضحى به فى سبيل الآخر ؟ .



والحق قد وصف الحياة بأنها « الدنيا » ولا يوجد وصف أدنى من هذا ، فأوضح المسألة : إنك ستعطى الدنيا وتأخذ الآخرة ، فإذا كان الذى تأخذه فوق الذى تعطيه فالصفقة - إذن - رابحة ، فالدنيا مهما طالت فإلى نهاية ، ولا تقل كم عمر الدنيا ، لأنه لا يعنيك أن يكون عمر الدنيا ألف قرن ، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد : هو مقدار حياته فيها ، وإلا فإن دامت لغيرى فما نفعى أنا ؟..

إذن فقيمة الدنيا هى : مقدار عمرك فيها ، ومقدار عمرك فيها مظنون ، وعلى الرغم من ارتفاع متوسطات الأعمار فى القرن العشرين ، فالبعض يقول : متوسط الأعمار فى أمريكا سبعون أو خمس وستون سنة ، لكن ذلك لا يمنع الموت من أن يأخذ طفلاً ، أو فتى ، أو رجلاً ، أو شيخاً .

إن عمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو : مقدار حياته فيها ، فلا تقارنها بوجودها مع الآخرين ، إنما قارنها بوجودها معك أنت ، وهب أنه متيقن ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال ، ستجد أن تنعمك خلالها مهما كبر وعظم فهو محدود .

والإنسان منا يظل يُربَّى إلى أن يبلغ الحُلُم . فإذا ما بلغ الحُلُم وأصبحت له حياة ذاتية ، أى أن إرادته لم تعد تابعة للأب أو للأم ، بينما فى طفولته كان كل اعتماده على أسرته ، أبوه يأتى له بالملبس فيلبسه ؛ وبالمطعم فيأكله ، ويوجهه فيتوجه ، لكن حينما توجد له ذاتية خاصة يقول لأبيه : هذا اللون لا يعجبنى ! والأكل هذا لا يعجبنى !! هذه الكلية لن أذهب إليها . ولا توجد للإنسان ذاتية إلا إذا وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع أن ينسل مثله ، فإذا ما أصبح كذلك نقول له : هذا هو النضج ، وهو الذى يجعل لك قيمة ذاتية .

إنك إذا زرعت شجيرة بطيخ . فأنت ترعاها سقياً وتنظيماً وتسميداً ، وهى مازالت صغيرة وتتعهدها كى لا تخرج مشوهة ، حتى تنضج ، وساعة تنضج يكون الشغل الشاغل قد انتقل من الشجيرة إلى الثمرة « البطيخة » ، فيقال صار لها ذاتية ؛ لأنك إن شققتها لتأكلها تجد « اللب » قد نضج ، وإن زرعته تأتى منه شجيرة أخرى .

ولكن إذا ما قطفت الثمرة قبل النضج فأنت قد تجد « اللب » أبيض لم ينضج بعد ، فلا تصلح تلك البذور لأن تأتى وتثمر مثلها ، وإذا كان « اللب » نصفه أبيض ونصفه أسود ، فهى لم تنضج تماما ، أما إذا وجدت « لبّها » أسمر اللون داكناً فهو صالح للزراعة والإثمار ، وتجد الحلاوة متمشية مع نضج البذرة . فلو كانت الثمار تنضج قبل البذور لتعجل الخلق أكل الثمرة قبل أن تربى وتنضج البذور ولانْقَطَعَ النوع ؛ لذلك لم يجعل ربنا حلاوة الثمرة إلا بعد أن تنضج البذور ، وكذلك الإنسان ، والحق يقول :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النور)

وعندما يكون الإنسان طفلاً فنحن نتركه يلهو ويرتع فى البيت ويرى هذه وهذه ، لكن إذا كان قادراً على نسل مثله واكتملت رجولته فعليه أن يستأذن ، وحين يكون الإنسان بهذا الشكل تصير له ذاتية ، ولنفترض أنه سيعيش عدداً من السنين تبلغ حوالى الخمسة والخمسين عاماً بعدما صارت له ذاتية ويستطيع النسل إنّه سيقضى مراهقته فى التعلم إلى أن يصبح صالحاً لأن يكسب ويعيش ويتمتع ، ثم لنسأل : كم سنة سيتمتع ؟ سنجدها عدداً قليلاً من السنوات .

إذن فالحياة محدودة ، والمتعة فيها على قدر إمكاناته ، فقد يسكن فى شقة من حجرتين أو فى شقة مكونة من ثلاث حجرات ، أو فى منزل خاص صغير أو حتى فى قصر ، وقد يركب سيارة أو يمشى على قدميه ، باختصار على قدر إمكاناته ، أما فى الآخرة فالموقف مختلف تماماً ، سيسلم نفسه إلى حياة عمرها غير محدود ، فإن قارنت المحدود بغير المحدود ستجد الغلبة للآخرة لأنها متيقنة والنعيم فيها على قدر سعة فضل الله وقدرته ، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة ، فتكون هذه هى الصفقة الرابحة التى لا تبور .

ولماذا يدخل الله العبد فى عملية البيع هذه ؟ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعرض عليك الصفقة لتدخل فى عملية البيع التى تجهدك إن لم تَقْتُل أو تُقْتَل فى سبيل الله لابد أن يوضح لك كيفية الغاية التى تأخذ بها الفوز فى الآخرة ، ولن تأخذ هذا

الفوز بالكلام فقط ، ولكن انظر إلى المنهج الذى ستقاتل من أجله ، إنّه تأسيس المجتمع الذى يؤدى كل امرىء فيه الأمانة ، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا من يريد أن يأخذ عرق الناس ويبنى جسمه من كدهم وتعبهم ، وهات مجتمعاً لا يؤمن بالله وقل : يأيها الناس نريد أن يؤدى كل واحد منكم الأمانة التى عنده ، نريد أن نحكم بالعدل ، فسيفرح أهل هذا المجتمع .

إذن فلكى نحمى المجتمع لابد أن نؤدى الأمانة وأن نقيم العدالة . ومن قبل ذلك أمرنا أن نعبد إلهاً واحداً فلا نتشتت ، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين .

قل لى بالله عليك : لو لم يكن هذا دينا من السماء ، وكان تشريعاً من أهل الأرض ، أهناك أعدل من هذا ؟ .

إن مثل هذا المنهج الذى يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن تطبيقه . وقبل أن يفرض علينا القتال أوضح سبحانه : هذا هو المجتمع الذى ستقاتلون من أجله ، واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال ، أقصى ما فيها أن تقتل ، فستأخذ صفقة الآخرة ، وقصرت مسافة غاياتك ؛ لأن كل شىء إنما يقاس بزمن الغاية له ، فإن قتلت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية ، فتصل إلى الجنة ، والحمق هو الذى يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون فى الحزن . نقول لهم : ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية ، فلماذا الغرق فى الحزن إذن ؟ .

والحق سبحانه وتعالى يكافىء من يقتل فى سبيل الله بحياة فى عالم الغيب وفيها رزق أيضاً . وبعض من الناس يظنون أنهم إن فتحوا قبر الشهيد فسيجدونه حياً يُرزق . ونقول لهم : إن الحق لم يقل : إن الشهداء أحياء عندكم ، بل أحياء عنده فى عالم الغيب . والحق سبحانه يطلب من الذى اقتنع بالإسلام أن ينشره ، وأن يعدل المسلمون بين أنفسهم لتنصلح أمورهم ، وأن يواجهوا أصحاب الشرّ الذى لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة .

ولم تأمر السماء بقتال قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الرسول من

السابقين على محمد صلى الله عليه وسلم يبلغ قومه برسالته ، فإن آمنوا فبها ونعمت وإن لم يؤمنوا تتدخل السماء بالعقاب ، بريح صرصر ، رجفة ، صيحة ، خسف الأرض بهم ، إغراق ، فالرسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان يبلغ ، والسماء تعاقب من لم يؤمن . وما وجد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال ، مثل بنى إسرائيل ، قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

هم الذين اقترحوا ، لكن القتال الذى يُثَبِّت المبدأ وينشر المنهج لإعلاء كلمة الله ، وسيطرة الخلافة الأمنية الإيمانية على الأرض ، لم يشرع إلا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكأن الله لم يأمن خلقاً على خلق إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد جعلها أمينة . فأنتم أمناء أن تتولوا عن السماء تأديب المخالف ، وبذلك أخذتم المستوى العالى فى المنهج والمستوى العالى فى الرسالة . وأكرم الله نبيّه فقال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

فجاء القتال وحارب المسلمون ـ وهم ضعاف ـ المجتمعات الفاسدة القوية . والشاعر يقول :

فقوى على الضلال مقيم وقطيع من الضعاف يُجارِى

هذا القتال لو لم يجئ به دين ، ألَا تقوم به الأمم التى لا دين لها لإصلاح أمرها ؟ إنها تقاتل ، فلماذا يكون مباحاً منهم أن يقاتلوا كى يقرروا مبادئهم ، وعندما يأتى الدين ليشرع القتال يقولون : لا . هذا دين سيف .

نقول لهم : بالله لماذا إذن تحارب الشعوب ؟ أنت تجد شعوبا تتحارب وتجد ظلما يحارب ظلما آخر ، فإذا ما وجد عدل ليزحزح ظلما نقف فى طريقه ؟ لا . وذلك حتى

نعرف أن المسألة مسألة رسالة من السماء لا طغيان ذوات اجتمعوا أو بيتوا مؤامرة لصنع انقلاب يسيطرون به على الناس .

لقد جاء الإسلام وآمن به الضعاف الذين لا يملكون أن يقاتلوا ، فلم يكن باستطاعتهم أن يحموا حتى أنفسهم ؛ ذلك حتى نعرف أن الحق ساعة يأتى ، يأتى عادة لا من قوى بل يأتى من ضعيف تعب كثيراً كى يثبت الإيمان ، والإسلام نادى ودعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة لكنه لم ينتصر كدين ولم يسطع إلا من المدينة . فمكة بلد محمد وفيها قبيلته قريش التى ألفت السيادة على الجزيرة كلها ولا أحد يستطيع أن يقرب منها بعدوان ، ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تعترض قوافلها بالتجارة إلى الجنوب أو إلى الشمال .

إن أى قبيلة تخاف أن تتعرض لها فى الطريق ؛ لأن القبائل ستأتى إلى قريش فى موسم الحج ، وتخاف كل قبيلة من انتقام قريش ، فلو أن الإسلام الذى صاح به رسول الله صلى الله عليه وسلم انتصر فى مكة ربما قالوا : قبيلة عشقت السيادة ، ودانت لها أمة العرب فما المانع من أن تطمح فى أن يدين لها العالم كله ؟

وأراد الحق أن تكون قريش هى أول من يضطهد رسول الله ويحاربه ، والضعاف هم الذين يتبعونه ، وبعد ذلك يأتى النصر لدين الله من مكان بعيد عن مكة من « المدينة » لتشهد الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد الإيمان بمحمد ، وها هوذا سيدنا عمر كان يسمع قول الله سبحانه :



(سورة القمر)

فيقول : أى جمع هذا ونحن لا نقدر أن نحمى أنفسنا ؟ ويقول الحق :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

فيقول عمر : كيف ونحن لا نقدر أن ندافع عن أنفسنا ؟

وبعد ذلك تأتى موقعة « بدر » فَتَثْبِت له صدق هذا ، والعجيب أن الآية تنزل وهم لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم ، فلا يمكن أن يقال: إن هناك مقدمات لذلك بحيث تستنتج النتيجة ؛ فالمقدمات لا توحى بأى نصر ، لكن ربنا هو الذى قال ، ورأوا صحيحاً أن الوليد بن المغيرة ضُرب على أنفه وتركت الضربة علامة على أنفه ؛ لأن الذى قال ذلك من قبل قادر على إنفاذ ما يقول بدون قوة تحول دون ذلك أبداً ، وهذا يدلنا على اختبار المبادىء .

إنك تجد أنّ الذى يؤمن بالمبادىء هو الذى يضحى أولاً ، يدفع ماله وقد يدفع دياره ، بأن يخرج منها ، وقد يدفع نفسه فيقتل ، كل ذلك من أجل المبدأ ، لكن الأمر يختلف مع المبادىء الباطلة ؛ فقبل أن يدخلها واحد تجده يأخذ الثمن . ومن يروجون للمبادىء الباطلة يقولون لمن يغررون به : خذا مالاً وعش واستمتع ، واشتر أحسن الثياب .

أما أصحاب مبدأ الحق فهم الفقراء الذين يدفعون الثمن ، ولهم الحق أن يدفعوا الثمن لأن المثمن غال ، لكن فى الباطل لا يعرفون مثمناً . والذى ينظر لمبدأ من المبادىء الهدامة ، يرى كيف يعيش قادتها ، بينما الرعية تحيا فى بؤس ، فيقول : أنا آخذ الثمن مقدماً، والأمر يختلف مع المؤمنين ، فهم الذين يدفعون الثمن . لينعموا بالجزاء فى الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى حين يشرع القتال لأمة محمد صلى الله عليه وسلم يشرعه أولا دفاعا ، كانوا يطلبون من رسول الله ، يقولون : يا رسول الله ، إئذن لنا نقاتل على قدر جهدنا ، فيقول : « اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال »[1] .

وبعد ذلك يؤمر بالقتال كى يدافع عن الخلية الإيمانية بعدما ذهبوا إلى المدينة ، ونعلم أن القتال عملية ضرورية فى الحياة . فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

(١) الكاف الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر .



وهو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

إذن فدفع الله بعض الخلق بالخلق أمر ضرورى واقعى . وحين يعاب على الإسلام أمر القتال ، نقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع هذا القتال فقد شرعه لأن قوى البغى هى التى تحول دون تطبيق منهج من مناهج العدالة المعروفة ، ولا يستطيع أحد أن يجادل فيها . ولو لم يكن العدل قادماً من السماء لما كان هناك منهج صالح يحكم الناس ، فإذا أراد الله أن يصنع العدل بمنهج أنزله هو ، فلماذا يأتى من يقف فى الطريق ويقول للرسول : أنت جئت لكى ترغم الناس أن يؤمنوا بمنهجك ؟!

ويوضح الحق مسيرة الرسول أنه جاء لكى يثبت كرامة الإنسان فهو سيد الأجناس التى تحيط به ، فالجماد مسخر ، والنبات مسخر ، والحيوان مسخر ، وليس لأى منهم حرية فى أن يقول : افعل ولا تفعل ، فلا توجد إرادة ولا اختيار عند كل الأجناس إلا عند الإنسان ؛ فالحق هو القائل عن أمانة الاختيار .

﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فبأى شىء تميز الإنسان على هؤلاء الأجناس ؟ تميز عليهم بالعقل ، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات ، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل ، فليس للعقل عمل فيه .

ومثال ذلك : هناك مكان نريد أن نذهب إليه ، فيوضح لك إنسان : لا يوجد إلا هذا الطريق ، فهل تفكر أن تذهب عن طريق آخر ؟ طبعا لا ، إذن فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين البديلات ، فإن لم يكن هناك بديل فلا عمل له . وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا نضمن له حرية الاختيار أم نقيد حرية الاختيار لديه ؟

إنك إن قيدت حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التى أعطيتها له ، وجعلته مقهوراً مسخراً مكرهاً ؛ ولذلك فالمكره لا يكون له حكم على الأشياء بل هو مجبر ومسخر .

ومادمت تقول : إن العقل هو الذى يختار بين البديلات ، فلا بد أن يكون حق الاختيار موجوداً ، فإن كان فى الإنسان عطب كأن يكون مجنونا ، فلا اختيار له ، وإن كان العقل موجودا لكنه لم ينضج بعد نقول أيضا : لا اختيار .

إذن فلا بد أن يكون العقل موجودا وناضجا للاختيار بين البديلات ، ويكون للإنسان حرية أن يختار ، فإن لم يكن العقل موجودا فهو مجنون فلا تكليف له . والمجنون قد سلبه الله أعز ما أعطى للإنسان وهو العقل ، لكن أعفاه الله أن يسأله أحد عن شىء ، فيفعل ما يفعل دون سؤال ، فلا تكليف لمجنون ، فالتكليف إذن لصاحب العقل الناضج ، وكذلك لا تكليف من قبل البلوغ .

إذن فالإسلام جاء ليحمى كرامة الإنسان فى حرية الاختيار ، ويعرض عليك أمر الإيمان ، فالذى حمل السيف ، لم يحمله ليجبر أحداً على الإيمان ، إنما ليرد كيد من أرادوا قهر الناس ، والجزية إنما فرضت لإعفاء غير المسلمين من مسئولية القتال ، ولو كان الإسلام يفرض الإيمان على الناس فى البلاد التى فتحها لما وجدنا أتباع أى دين فى البلاد التى دخلها الإسلام . وهذه شهادة للمسلمين .

إن الإسلام لم يجئ ليفرض دينا وإنما جاء ليحمى حرية اختيار الدين ؛ والذين يقولون:إن الإسلام جاء بالسيف نقول لهم : افهموا جيدا ، لقد كان المؤمنون الأوائل ضعافا وظلوا على الضعف مدة طويلة ، والبلاد التى فتحت بالإسلام مازال فيها أناس غير المسلمين ، وهذا دليل أن الإسلام جاء ليحمى حرية الاختيار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ثم نأتى لنقطة أخرى وهى أن الإسلام لم يأخذ الجزية إلا لأن غير المسلم سيستمتع

بكل خيرات بلاد الإسلام ، والمسلم يدافع وأيضا يدفع الزكاة والخراج . إذن فالمسألة عدالة منهج ، وعلى ذلك يجب أن نفهم أن قول الحق :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالقتال إنما جاء حتى تسيطر مناهج السماء ، وسبحانه حينما يقول : « فليقاتل فى سبيل الله » فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأن يقاتل الرجل حمية ، أو ليعلم مكانه من الشجاعة ، فقتال الرجل دائما حسب نيته ، ولذلك تساءل بعض الناس : من الشهيد ؟ قال العلماء : هو من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيدا . إذن فالقتال مرة يكون فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان .

يقول الحق : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » أى يبيعون الدنيا ليأخذوا الآخرة ، « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

إذن فالذى يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين : إما أن يُقتل من الأعداء ، وإما إن ينتصر ، وهذه هى القضية الجدلية التى تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر ، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر : أنا أقاتل لإحدى الحسنين : إما أن أُقتل فأصبح شهيدًا آخذ حياة أفضل من هذه الحياة ، وإما أن أنتصر عليك ، فلماذا تتربصون بنا أيها الكفار ؟

إن المؤمن يثق أنه فائز بكل شىء ؛ فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياتكم ، وإما أن ينتصر ، والحالتان على سواء من الخير .

وهذا للاستدلال بأن هذا المنهج يراق فيه الدم ، وشهادة لهذا الدين بأنه صحيح ، وإلا فلن يذهب أحد للقتال إن لم يكن مقتنعا بالدين ، فكل واحد يعمل

لحياته ونفسه ، فكل الأمور بالنسبة للإنسان نفعية حتى فى الدين ، ولذلك يقولون : لا تكن أنانيا رخيصا بل عليك أن تكون أنانيا غاليا ، والدين هو ممارسة لأنانية عليا .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ الذى ليس معه إلا جنيه وهو يحتاج إليه ثم رأى واحدا فى حاجة ماسة ، فيقول المؤمن لنفسه : لقد أكلت ، وقد يكون هذا الإنسان لم يأكل بعد فلأعطه الجنيه .

بالله أهو يحب الذى أخذ الجنيه عن نفسه ؟ لا ، بل هو يحب نفسه ، لكنها أنانية عليا ؛ أنانية معلاة . وسبق أن قلنا : إن الذى يجلس ويرى امرأة جميلة فغض عينه أمره يختلف عن واحد آخر « يبحلق » ويحدّق وينظر إليها بشدة ، فأيهما يحب الجمال أكثر ؟ إن الذى غضّ بصره هو من يحب الجمال أكثر ؛ لأنه لا يريدها لحظة فقط ، بل يريدها مستديمة .

فما بالنا بالذى يبيع الدنيا ويقتل فى سبيل الله ويأخذ الآخرة التى ليس فيها قتل أو أى شىء مكدر ؟ إذن فهذه أنانية عليا ، والحق سبحانه وتعالى يعاملنا بقانون النفعية ، لكنها نفعية عليا وليست نفعية رخيصة أو قصيرة المدى ، فيجعلنا نبيع الرخيص بالثمن الغالى .

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يقاتلون فى سبيل الله وعرض عليه منظرهم وهو فى ليلة الإسراء والمعراج ، رأى صلى الله عليه وسلم جماعة يزرعون ويحصدون بعد البذر مباشرة ؛ لأن الذى قتل فى سبيل الله إنما فعل ذلك إعلاء لكلمة الله ، فلا ينتهى قطفه أبدا للخير الذى بذله ، وحياته مستمرة فى حياة الملايين . « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » وعرفنا أن كل مؤمن يقاتل فى سبيل الله إنما يقول لمعسكر الكفر ما جاء به الحق فى قوله :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالمؤمن يعلم أنه إما أن يُقتل ويكون شهيداً ، وإما أن يَغلب معسكر الكفر . وهو يتربص بالكافرين أن يُصيبهم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدى المؤمنين ، إذن فالمؤمنون رابحون على كل حال ، والكافرون خاسرون على كل حال .

و« المعرى » قبل أن يهديه الله وكان متشككاً قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يُعاد لنا سبك

فقالوا: إنه ينكر البعث ، فمادام قد جاء بمثل يقول فيه إن الإنسان كالزجاج إن تحطم فلن يستطيع أحد أن يعيده إلى سيرته الأولى ، قال ذلك أيام تكبر الفكر ، وهذه تأتى فى أيام الغرور ، ثم جاءت الأحداث لتلويه وتضرب فى فكره وينتهى إلى الإيمان ، لكن أكان ضامناً أن يعيش حتى يؤمن ؟ فلماذا لم يخلص نفسه من مرارة تجربة الشك ؟ ولكنه بعد أن آمن قال : « هأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور . ربنا حَقٌ وربنا سميع وربنا بصير وقال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولى فالخسار عليكما

أى إن صحّ قولكما على أنه لا بعث وقمت أنا بالأعمال الطيبة فى الدنيا ، فماذا أكون قد خسرت ؟ إننى لن أخسر شيئاً ، وإن صحّ قولى وفوجئتم بالآخرة والبعث فأنا الذى يكسب والخسران والبوار والعذاب عليكما ، إذن فإيمانى إن لم ينفعنى فلن يضرنى ، وكلامكما حتى لو صح -وهو غير صحيح ولا سديد- فلن يضرنى .

والحق يقول : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » وسبحانه هنا يطيل أمد العطاء . انظروا دقة الأداء القرآنى،لأن الذى يتكلم هو الله ، ولنر كيفية ترتيب فعل على فعل ، فحين أقول لك : « احضر لى أكرمك » ، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام ، ولكن إن قلت لك : « إن حضرت إلىّ فسأكرمك » ، فهذا يعنى أن الزمن يمتد قليلاً ، فلن تكرم من فور أن تأتى بل أنت تحضر عندى وبعد ذلك تأخذ تحيتك ، ويأتيك الإكرام بعد قليل .

وإن أردت أنا أن أطيل الزمن أكثر فإنى أقول : « إن حضرت إلىّ فسوف أكرمك » . إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتى من فور حصول الشرط ، وجزاء يأتى بعد زمن يسير تؤديه « السين » ، وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه « سوف » .

ولم يقل الحق : من يقاتل فى سبيل الله نؤتيه أجراً عظيماً ، ولم يقل : فسنؤتيه أجراً عظيما ، ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجرا عظيماً » وهذا القول سيبقى ليوم القيامة ؛ لذلك كان لابد أن تأتى « سوف » هنا ، وهذا دليل على أنه جزاء موصول لا مقطوع ولا ممنوع .

وهكذا نرى إحكام الأداء القرآنى ، والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه وذاته ، يأتى بأساليب كثيرة : فمرة يأتى بأسلوب الجمع ، ونحن نقول ، كما علمونا فى النحو : « النون للتعظيم » كما فى قوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجر)

لم يقل : أنا أنزلت . . فكل شيء يكون نتيجة فعل من أفعال الله . تأتيه « نون التعظيم » ؛ لأنه سبحانه حين يصنع شيئاً لخلقه من متعة أو من نعيم ، يريد صفات كثيرة : قدرة للإبراز ، وعلما لترتيب النعمة ، وتدبيرا وحكمة ، وبسطا ، فيقول هنا : « نؤتيه » ، لأن الصفات تتكاتف لتعمل الخير ، لكنه حين يتكلم عن ذاته مجرداً عن الفعل . فسبحانه يتكلم بالوحدانية مثل قوله الحق :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ ﴾

(سورة طه)

فساعة يتكلم سبحانه عن ذاته فهو يتكلم بالوحدانية ، ولا تقل بالإفراد تأدباً مع الله فليس له شريك أو مثيل ، وحينما يتكلم سبحانه عن فعله يأتى بالجمع فيقول : « نحن » وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، مثلما حدث عند قراءة قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

لقد جاء سبحانه فى صدر الآية بـ « أنزل » وكان يناسبها أن يأتى بعدها « أخرج » ، لكنه قال : « فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » فلماذا هذه « مفردة » وتلك « جمع » ؟ ؛ لأنه ساعة قال : « أنزلنا من السماء ماءً » لم يكن لأحد من خلقه ولو بالأسباب فعل فى إنزال المطر ، لكن ساعة أن أنزل المطر ، نجد واحداً قد حرث الأرض ، وثانياً بذر ، وثالثاً روى الأرض ، وكل ذلك من أسباب خلقه ، فلم يهضم الله خلقه فقال : « أنزل من السماء ماءً » ثم بعد ذلك : أنا وخلقى بما أمددتهم ومنحتهم « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » . إذن فلا بد أن نتنبه إلى دلالة الكلمة حين تأتى بالمفرد وحين تأتى بالجمع .

وقوله سبحانه : « نؤتيه أجراً عظيماً » يلفتنا إلى أن كل فعل إنما هو حدث يتناسب مع فاعله أثراً وقوة . فالطفل عندما يصفع آخر لا تكون صفعته فى قوة الشاب أو قوة الرجل ، فإذا كان الذى يعطى الأجر مثيلاً لك فسيعطيك أجراً على قدره ، لكن إذا كان من يعطى هو ربنا ، فسيعطى الأجر على قدره ، ولا بد أن يكون عظيماً . والأجر هو الشيء المقابل للمنفعة .

وهناك فرق بين الأجر والثمن ؛ فالثمن مقابل العين ، أما الأجر فهو مقابل المنفعة ، أنا اشتريت هذه ، فهذا يعنى أنى دفعت ثمناً ، لكن إن استأجرت شيئاً فهو لصاحبه ولكن أخذته لأنتفع به فقط ، وجزاء الحق لمن يقتل فى سبيل الله أهو أجر أم ثمن ؟ ، ونلتفت هنا أن الحق قد أوضح : أنا لم أثمن مَن قتل ، بل نظرت لعمله ، فأخذت أثر عمله ، وأعطيته « أجراً عظيماً » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

والآية تبدأ بالتعجيب ، ذلك أنه بعد إيضاح لون الجزاء على القتال فى سبيل الله كان لا بد أن يصير هذا القتال متسقاً مع الفطرة الإنسانية ، ونحن نقول فى حياتنا العادية : وما لك لا تفعل كذا ؟ كأننا نتساءل عن سبب التوقف عن فعل يوحى به الطبع ، والعقل . فإن لم يفعله الإنسان صار عدم الفعل مستغرباً وعجيباً . فالقتال فى سبيل الله بعد أن أوضح الله أنه يعطى نتائج رائعة ، فالذى لا يفعله يصبح مثاراً للتعجب منه ، ولذلك يقول الحق : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله » أى لإعلاء كلمة الله ، ومرة يأتى القتال وذلك بأن يقف الإنسان المؤمن بجانب المستضعف الذى أوذى بسبب دينه . ويكون ذلك أيضا لإعلاء كلمة الله .

يقول سبحانه : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين » أى أن القتال يكون فى سبيل الله وفى خلاص المستضعفين ، وفى ذلك استثارة للهمم الإنسانية حتى يقف المقاتل فى سبيل رفع العذاب عن المستضعفين ، بل إننا نقاتل ولو من باب الإنسانية لأجل الناس المستضعفين فى سبيل تخليصهم من العذاب ؛ لأنهم ماداموا صابرين على الإيمان مع هذا العذاب ، فهذا دليل على قوة الإيمان ، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب .

ويعطينا سبحانه ذلك فى أسلوب تعجب : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين » فكأن منطق العقل والعاطفة والدين يحكم أن نقاتل ، فإذا لم نقاتل ، فهذه مسألة تحتاج إلى بحث .

وساعة يطرح ربنا مثل هذه القضية يطرحها على أساس أن كل الناس يستوون عند رؤيتها فى أنها تكون مثاراً للعجب لديهم ، مثلها مثل قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

يعنى كيف تكفرون بربنا أيها الكفار ؟ إن هذه مسألة عجيبة لا تدخل فى العقل ، فليقولوا لنا إذن : كيف يكفرون بربنا ؟

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال » وكلمة «والمستضعفين» يأتى بعدها « من الرجال » والمفروض فى الرجل القوة ، وهذا يلفتنا إلى الظرف الذى جعل الرجل مستضعفاً ، ومَنْ يأتى بعده أشد ضعفاً . « المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا » فقد بلغ من اضطهاد الكفار لهم أن يدعوا الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها ، والقرية هى « مكة » .

وقصة هؤلاء تحكى عن أناس من المؤمنين كانوا بمكة وليست لهم عصبية تمكنهم من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم ممنوعون من أن يهاجروا ، وظلوا علَى دينهم ، فصاروا مستضعفين : رجالاً ونساءً وولداناً ، فالاضطهاد الذى أصابهم اضطهاد شرس لم يرحم حتى الولدان ، فيقول الحق للمؤمنين : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » .

وهؤلاء عندما استضعفوا ماذا قالوا ؟ . قالوا : « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً » وعبارة الدعاء تدل على أنهم لن يخرجوا بل سيظل منهم أناس وثقوا فى أنه سوف يأتيهم ولىّ يلى أمرهم من المسلمين ، فكأنها أوحت لنا بأنه سيوجد فتح لمكة . وقد كان .

لقد جعل الله لهم من لدنه خير ولىّ وخير ناصر وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أقوى النصر .

هذه الجماعة من المستضعفين منهم « سلمة بن هشام » لم يستطع الهجرة ، ومنهم « الوليد بن الوليد » و« عياش بن أبي ربيعة » ، و« أبو جندل بن سهيل بن عمرو » . وسيدنا ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : لقد كنت أنا وأمي من هؤلاء المستضعفين من النساء والولدان ، وكانوا يضيقون علينا فلا نقدر أن نخرج ، فمثل هؤلاء كان يجب نصرتهم ، لذلك يحنن الله عليهم قلوب إخوانهم المؤمنين ويهيج الحمية فيهم ليقاتلوا في سبيلهم ؛ فظلم الكافرين لهم شرس لا يفرق بين الرجال والنساء والولدان في العذاب .

« الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً » وكان رسول الله والمسلمون نصراء لهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦ ﴾

وعرفنا أن الطاغوت هو : المبالغ والمسرف في الطغيان ، ويطلق على المفرد وعلى المثنى ، وعلى الجمع : فتقول : رجل طاغوت ، رجلان طاغوت ، رجال طاغوت ، والحق يقول :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

إذن فالطاغوت يطلق على المفرد وعلى المثنى وعلى الجمع ، وهل الطاغوت هو الشيطان ؟. يصح . أهو الظالم الجبار الذى يطغيه التسليم له بالظلم ؟ يصحّ ، أهو الذى يفرض الشرّ على الناس فيتقوا شرّه ؟ يصحّ ، وكل تلك الألوان اسمها « الطاغوت » .

والأسلوب القرآنى يتنوع فيأتى مرة ليقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

وانظر للمقابلة هنا : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت » ، هنا « آمنوا » و« كفروا » وهنا أيضا فى « سبيل الله » و« فى سبيل الطاغوت » هذه مقابل تلك . لكى نعرف العبارات التى ينثرها ربنا سبحانه وتعالى علينا أن ندرك فيها الخطفة الإعجازية ، قال فى هذه الآية : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا » مقابلات ، لأن الكافر مفهوم أنه طاغوت ، ولكن : إذا ذكرت فى الثانية مقابلا لمحذوف من الأولى ، أو حذفت من الأولى مقابلاً من الثانية ، هذا يسمونه فى الأسلوب البيانى احتباكا كيف ؟

ها هوذا قوله سبحانه وتعالى : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » أى تقاتل فى سبيل الطاغوت ، ويقابلها الفئة التى تقاتل فى سبيل الله ولا بد أن تكون مؤمنة .

إذن فالكلام كله منسجم ، فقال : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة » وترك صفتها كمؤمنة وقال : « تقاتل فى سبيل الله » وسنعرف على الفور أنها مؤمنة ، وربنا يحرك عقولنا كى لا يعطينا المسائل بوضوح مطلق بل لنعمل فكرنا ، كى لا يكون هناك تكرار ، ولكى تعرف أنه إذا قال : « فى سبيل الله » يعنى مؤمناً ، وإذا قال : « فى سبيل الطاغوت » يكون كافراً .

ويتابع الحق : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . أى نصراء الشيطان الذين ينفخون فى مبادئه ، والذين ينصرون وسوسته فى نفوسهم ليوزعوها على الناس ، هؤلاء هم

أولياء الشيطان ؛ لأن الشيطان - كما نعرف - حينما حدث الحوار بينه وبين خالقه . قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

لكنه عرف حدوده ولزمها فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

(سورة ص)

أى أن من تريده أنت يارب لا أقدر أنا عليه . وهذه تدلنا على أن المعركة ليست بين إبليس وبين الله ، فتعالى الله أن يدخل معه أحد فى معركة ، بل المعركة بين إبليس وبين الخائبين من الخلق ، فعندما قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » دلّ على أنه عرف كيف يُقْسِم ويحلف ؛ لأن ربنا لو أراد الناس كلهم مؤمنين لما قدر الشيطان أن يقرب من أحد ، لكن ربنا عزيز عن خلقه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن هنا دخل الشيطان ، فالشيطان قد دخل من عزّتك على خلقك سبحانك لأنك لو كنت تريدهم كلهم مؤمنين لما استطاع الشيطان شيئاً ، بدليل قوله : « إلا عبادك منهم المخلصين » أى أنا لا أقدر عليهم . ودلّ قَسَم الشيطان أنه دارس ومنتبه لمسألة دخوله على العباد فقال :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فالشيطان لن يأتى على الصراط المعوجّ ؛ لأن الذى يسير على الصراط المعوج والطريق الخطأ لا يريد شيطاناً ؛ فهو مريح للشيطان ، ويعينه على مهمته ، فيكون وليّه . فأولياء الشيطان هم كل المخالفين للمنهج ، وهم نصراء الشيطان .

والحق يأمرنا : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . هؤلاء الذين بينهم وبين الشيطان ولاء ، هذا ينصر ذاك ، وذاك ينصر هذا ، ويطمئننا الحق على ذلك فيقول : « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ؛ لأن الشيطان عندما يكيد سيكون كيده فى مقابل كيد

ربه ، فلا بد أن يكون كيده ضعيفاً جداً بالقياس لكيد الله ، وليس للشيطان سلطان يقهر قالب الإنسان على فعل ، ولا يستطيع أن يرغمك على أن تفعل ، وليس له حجة يقنعك بها .

والفرق بين من يكره القالب ـ قالبك ـ : أنك تفعل الفعل وأنت كاره . كأن يهددك ويتوعدك إنسان ويمسك لك مسدساً ويقول لك:اسجد لى ـ مثلاً ـ إذن فقد قهر قالبك . لكن هل يقدر أن يقهر قلبك ليقول:« أحبنى » ؟. لا يمكن . إذن فالمتجبر يستطيع أن يكره القالب لكنه لا يقدر أن يقهر القلب ، فالذى يقهر القلب هو الحجة والبرهان ، بذلك يقتنع أن يفعل الفعل وليس مرغماً عليه . إذن فالأول يكون قوة ، والثانى يكون حجة .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اعرفوا أن هذا الشيطان ضعيف جداً ، فهو لا يملك قوة أن يرغمك فإذا أغواك تستطيع أن تقول له : لن أفعل . . ولا يستطيع أن يأتى لقلبك ويقول لك : لا بد أن تفعل ويحملك على الفعل قهرا عنك . فليس عنده حجة يقنعك بها لتفعل ، فهو ضعيف ، فلماذا تطيعونه إذن ؟. إنكم تطيعونه من غفلتكم وحبكم للشهوة ، والشيطان لا يقهر قلبكم ، ولا يقهر قالبكم . بل يكتفى أن يشير لكم !! ، ولذلك سيقول الشيطان فى حجته يوم القيامة على الخلق :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى لم يكن لى عليكم سلطان : لا سلطان قدرة أرغمكم على فعلكم بالقالب ، ولا سلطان حجة أرغمكم على أن تفعلوا بالقلب ، أى أنتم المخطئون وليس لى شأن ، إذن فكيد الشيطان ضعيف . و« الكيد » ـ كما نعرف ـ هو : محاولة إفساد الحال بالاحتيال ، فهناك من يفسد الحال لكن ليس بحيلة ، وهناك من يريد أن يفسدها بحيث إذا أمسكت به يقول لك : لم أفعل شيئاً ؛ لأنه يفعل الخطأ فى الخفاء . ويفسد الحال بالاحتيال . والكيد لا يقبل عليه إلا الضعيف .

إن القوى هو من يواجه من يكيد له ، فالذى يدسّ السّم لإنسان آخر فى القهوة

ـ مثلاً ـ هو من يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال ؛ لأنه لا يقدر أن يواجه ، أما القوى فهو يتأبى على فعل ذلك ، وحتى الذى يقتل واحداً ولو مواجهة نقول له : أنت خائف ، أنت أثبت بجرأتك على قتله أنك لا تطيق حياته ، لكن الرجولة والشجاعة تقتضى أن تقول : أبقيه وأنا أمامه لأرى ماذا يقدر أن يفعل .

إذن فكيد الشيطان جاء ضعيفاً لأنه لا يملك قوة يقهر بها قالباً ، ولا يملك حجة يقهر بها قلباً ليقنعك ، فهو يشير لك باحتيال وأنت تأتيه : ولا يحتال إلا الضعيف . وكلما كان ضعيفاً كان كيده أكثر ، ولذلك كانوا يقولون مثلاً : المرأة أقوى من الرجل لأن ربنا يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ونقول لهم : مادام كيدهن عظيما ؛ إذن فضعفهن أعظم ، وإلا فلماذا تكيد ؟ . ولذلك يبرز الشاعر العربى هذا المعنى فيقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ساعة يمسك خصمة مرة . وتمكنه الظروف منه ؛ يقول : لن أتركه لأننى لو تركته فسيفعل بى كذا وكذا . لكن القوى حينما يمسك بخصمه ، يقول : اتركه وإن فعل شيئاً آخر أمسكه وأضرب به على رأسه ، إذن فإن كان الكيد عظيماً يكون الضعف أعظم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

نعرف أن الحق ساعة يقول : « ألم تر » يعني : إن كانت مرئية في زمنها ، فلك أن تتأمل الواقعة على حقيقتها ، وإن كانت غير مرئية فمعناها : ألم تعلم ، ولكن العلم بإخبار الله أصدق من العين . وحين يقول الحق : « كفّوا أيديكم » لا بد أن تكون بوادر مدّ الأيدي موجودة ، فلن يقال لواحد لم يمد يده : كف يدك . والكلام هنا في القتال ، فيكون قد كفوا أيديهم عن القتال ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جاء في المقابل فقال : « فلما كتب عليهم القتال » إذن فقد قيل لهم : « كفوا أيديكم » لأن بوادر مدّ الأيدي للقتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن يقولوا : دعنا يا رسول الله نقاتل ، وإما فعلاً بأن تهيأوا للقتال . وعندما يقول القرآن : « فلما كُتِبَ عليهم القتال » دل هذا القول على وجود زمنين بصدد هذه الآية : زمن قيل لهم : كفّوا أيديكم ، وزمن كُتِبَ عليهم القتال ، فنفهم من هذه أنه كانت هناك بوادر لمدّ اليد إلى القتال قبل أن يكتب عليهم القتال والذين قالوا:دعنا نقاتل هم : ابن عوف وأصحاب له ، ولو كان الأمر بالقتال متروكا للرسول لكان قد أمرهم بمجرد أن قالوا ذلك .

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة . فقالوا : يا نبي الله ، كنا في عزة ، ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة قال : « إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال ، فكفوا ، فأنزل الله «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم »[1] .

(١) رواه ابن أبي حاتم ، ورواه النسائي والحاكم .

راجع أصله وخرّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا دليل على أنه منتظر أمر السماء . وبعد ذلك كتب الله عليهم القتال ، فلما كتب عليهم القتال تملص البعض منه . . مصداقاً لقول الحق : « فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » فلماذا هذه الخشية وهم مؤمنون : هل هذا يعنى أنهم خافوا الناس أو رجعوا فى الإيمان ؟ . كما طلب بعض من بنى إسرائيل القتال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فعندما تصل المسألة إلى الأمر التطبيقى ، قد يدب فى نفوسهم الخَوَر والخوف ، والحق سبحانه لم يمنع الأغيار أن تأتى على المؤمن ، فمادام الإنسان ليس رسولا ولا معصوما فلا تقل : فلان عمل كذا أو فلان عمل كذا ؛ لأن فلانا هذا لم يدع أنه معصوم ، ولذلك يصح أن تأتى منه الأخطاء ، وتأتيه خواطر نفسه ، وتأتيه هواجس فى رأسه ، ويقف أحياناً موقف الضعف ، ولذلك عندما يقول لك واحد : فلانة عملت كذا وفلان عمل كذا ، قل له : وهل قال أحد إن هؤلاء معصومون ؟ ومادامو غير معصومين فقد يتأتى منهم هذا .

والله يقول : « إذا فريق منهم » وهذا يعنى أنهم ليسوا سواء ، ففريق منهم أصابه الضعف ، وفريق آخر بقى على شدته وصلابته فى إيمانه لم تلن له قناة ولم ينله وهن ولا ضعف ، ثم انظر أدب الأداء . لم يقل : فلان أو فلان . بل قال : « إذا فريق منهم » وهذا يستدعى أن يبحث كل إنسان فى نفسه ، وهذه عملية أراد بها الحق الستر للعبد ، ومادام الستر قد جاء من الرب ، فلنعلم أن ربنا أغير على عبده من نفسه ، ولذلك نقول دائما : ساعة يستر ربنا غيب الناس على الناس فهذا معناه : تكريم للناس جميعا .

وهب أن الله أطلعك على غيب الناس أتحب أن يطّلع الناس على غيبك ؟! لا ، إذن فأنت عندما ترى أن ربنا قد ستر غيبك عن الناس وستر غيب الناس عنك فاعرف أن هذه نعمة ورحمة ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، فيصح أن واحداً أساء إليك فى نفسه ولم يرغب أن تعرف ذلك ، وأنت أيضاً تريد أن تتخلص منه وتكرهه ، فلو أطلعه الله على ما فى قلبك ، أو أطلعك على ما فى قلبه لكانت معركة يجرح فيه كل منكما كرامة الآخر ، لكن ربنا ستر غيب خلقه عن خلقه رحمة بخلقه .

وأنت أيضاً أيها العبد قد تعصيه ويحب أن يستر عليك ، ويأمر الآخرين ألا يتقصوا أخبار معصيتك له . بالله أيوجد رب مثل هذا الرب ؟ شيء عجيب ؛ فقد تكون عاصياً له ويحب أن يستر عليك ، ويأمر غيرك : إياكم أن تتبعوا عورات الناس ، فقد يكون عندهم بعض الحياء ، ويكونون مستترين فى أسمالهم وملابسهم لماذا ؟ حتى لا يفقدوا أنفسهم أو يضلوا طريق التوبة لربهم .

إذن فالحق يرحم المجتمع ، ولكن الخيبة من الناس أنهم يلحون على أن يعلموا الغيب ويبحثوا عمن يكشف لهم الطالع . ونقول لمن يفعل ذلك : يا رجل لقد ستر الله الغيب عنك نعمة منه عليك ، فاجعله مستورا كما أراد الله .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » والواحد من هذا الفريق يخشى القتال والقتل ، ويخاف من الموت ؛ لأنه سيأخذه إلى جزاء العمل الذى عمله فى الدنيا . ولذلك نجد أحد الصحابة يقول : أكره الحق .

فتساءل صحابى آخر : كيف تكره الحق ؟ قال : أكره الموت ومن منا يحبه !

ولماذا يخشى الناس القتال ؟ لأن الله حين يُميت ؛ يُميت بدون هدم بنية ، ولكن الأعداء فى القتال قد يقطعون جسد الإنسان ويمثلون به ، لكن إن استحضر العبد الجزاء على هذه المُثْلَة تهون عليه المسألة .

« إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا

القتال » وكأنهم قد نسوا أنهم طلبوا القتال ، كي نعرف أن النفس البشرية حين تكون بمنأى عن الشيء تتمناه ، وعندما يأتيها تعارضه .

« وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب » فهل جاء هذا الكلام منهم على سبيل الاستفهام ؟ يوضح الله لنا ذلك : إنهم يقولون : يارب لماذا ابتليتنا هذا الابتلاء ، وقد لا نقدر عليه فى ساعة الخوف من لقاء المعارك ؟ لذلك طلبوا أن يؤجل الله ذلك وأن يجعلهم يموتون حتف أنوفهم لا بيد العدو ، وكلمة « إلى أجل قريب » توضح أن كل واحد منهم يعى تماماً أنه سيموت حتماً ، لكن لا أحد منهم يريد أن تنتهى حياته بالقتل .

ولماذا تطلبون التأخير ؟ أحُباً فى الدنيا ومتاعها ؟ ويأتى جواب الحق : « قل متاع الدنيا قليل » ولا يصح أن تحرصوا عليه أيها المؤمنون حرصاً يمنعكم أن تذهبوا لتقاتلوا ، فكلكم ستموتون ، وكل منا يجازيه ربنا على عمله ، أما الذى يُقتل فى سبيل الله فسيجازيه على عمله فورا ، ويعطيه حياة أخرى مقابل الموت . لأنه سيأخذ الشهادة ، ولذلك يأمر الحق رسوله بأن يقول : « قل متاع الدنيا قليل » إن قارنته بما يصل إليه المرء من ثواب عظيم إن قتل فى الحرب جهاداً فى سبيل الله . قال بعضهم : اذا كان لا مفر من الموت ، فلماذا لا نذهب لنقاتل فى سبيل الله ، فإن قتلنا فليكن موتنا بثمن زائد عن عملنا ، إذن فهذا تربيب وتنمية للفائدة ، ولذلك قال الحكيم :

ولو أن الحياة تبقى لحى ... لعددنا أضلنا الشجعان

أى أن الحياة لو كانت تبقى لحى لكان أضل ناس فينا هم الشجعان الذين يقتلون أنفسهم فى الحرب ، لكن المسألة ليست كذلك ، والشاعر العربى يقول :

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدى

والمتنبى يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه ... حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس ورثه التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

إذن فالاثنان يحبان نفسيهما ، لكن هناك فرق بين الحب الأحمق والحب الأعمق .

وعندما ننظر إلى إجمالي السياق في الآية نجد أن الحق سبحانه يربي - في صدر الإسلام - الفئة المؤمنة تربية إيمانية لا تخضع لعصبية الجاهلية ولا لحمية النفس، ففريق من المؤمنين بمكة الذين ذاقوا الاضطهاد أحبوا أن يقاتلوا ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغهم أنه لم يؤمر بالقتال بعد ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يصبروا على ما هم فيه حتى يأذن الله بالقتال ، وتلك تربية أولى للفئة المؤمنة ؛ لأن الإسلام جاء وفي نفوس العرب حمية وعصبية وعزة وأنفة ، فكلما أهيج واحد منهم في شيء فزع إلى سيفه وإلى قبيلته وشنها حرباً ، فيريد الله سبحانه أن يستل من الفئة المؤمنة الغضب للنفس والغضب للعصبية والغضب للحمية ، وأراد أن يجعل الغضب كله لله .

وحينما جاء الإذن بالقتال ، جاء لا ليفرض على الناس عقيدة ، ولا ليكرههم على إسلام ، وإنما جاء ليحمي النفس الإنسانية من أن يتسلط عليها الأقوى الذي يريد أن يجعل الأضعف تبيعاً له ، فأراد سبحانه أن يحرر الاختيار في الإنسان فكان القتال حفاظا على كرامة الإنسان أن يكون تبيعاً في العقيدة لغيره ، وبعد ذلك يعرض قضية الإسلام عرضاً عقلياً ؛ فمن استجاب له فمرحباً به ، ومن لم يستجب فله أن يظل على دينه . وهذا يدل على أن الإسلام دين منع التسلط على عقائد الناس ، وضمن لهم الحرية في أن يختاروا ما يحبون من العقائد بعد أن بين لهم الرشد من الغي .

وحينما شرع الله القتال فقد شرعه دون أن يكون هناك أدنى تدخل لغضب النفس ولا لحميتها ولا لعزتها ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصور العواطف الإنسانية التي تواجه الإسلام ويواجهها الإسلام تصويرا طبيعياً . فبين لنا أن الطبع الإنساني يعالج بالتربية ، ولهذا نجد أن بعضاً من الذين طلبوا القتال خافوا : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » .

إذن فهناك فرق بين نظرية أن نقاتل ، وأن نخوض القتال بالفعل ؛ لذلك تجد أن منهم من خاف الذهاب إلى القتال خشية أن يُقتلوا ، والقتل كما تعلمون : هدم بنية ، ولكن الموت حتف الأنف هو الذي يسحب به الله الروح الإنسانية ، دون

هدم بنية أو نقض لها . وأيضا فالقتال يكون مظنة القتل ، والخوف من القتال مظنة التراخي في الأجل ، فالقتل موت مقرب أمام المقاتل ، لكن الموت حتف الأنف علمه عند الله ؛ لذلك قالوا : « ربنا لم كتبت علينا القتال » .

فهل كان طلبهم للقتال لقصد الحمية ، وسبحانه يريد أن يبرىء المؤمن أن يكون قتاله للحمية ؛ لأنه جل وعلا يريد أن تكون المعركة إيمانية ؛ لتكون كلمة الله هي العليا حتى ولو كان المخالف له صلة نسب أو صلة عصب أو صلة عواطف .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا ذلك ؛ لأن الأمة الإسلامية ستواجه عنفا شرسا في تثبيت قاعدة الاختيار الإيماني في البشر ، فقال الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن قالوا لك ذلك « قل متاع الدنيا قليل » ، فالحرص على أن يستبقى المؤمن نفسه من القتل ليموت بعد أجل قريب يعني أنه يريد أن يأخذ من الحياة فرصة أكبر ، فأوضح الحق : لا ، ضعوا مقياسا تقيسون به الجدوى ، فسبحانه قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

إنه شراء وبيع . وأيضاً قال سبحانه في الصفقة الإيمانية :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الصف)

إذن فالله يعاملنا بملحظ النفعية الإنسانية ، واللبق ، الفطن ، الذكي هو الذي يتاجر في الصفقة الرابحة أو المضمونة أو التي تكون جدواها والفائدة منها أكثر من سواها . فلو أننا قارنا الدنيا ، لعلمنا أنها مهما طالت لا تؤثر ولا تزيد في عمر الفرد ؛ لأن الدنيا تطول في الزمن ، لكنها بالنسبة للأفراد تكون بمقدار عمر كل واحد فيها ، لا بمقدار أعمار الآخرين ، فإن دامت للآخرين طويلاً ، فما دخل الفرد في ذلك ؟

إذن فالدنيا بالنسبة للفرد هي زمن محدد ، والله يبشر المؤمن الذي يقتل في سبيله أنه يأخذ من الصفقة زمناً غير محدود . وأيضاً فالبقاء في الدنيا بدون قتل وإلى أن

يموت الواحد حتف أنفه ، هو بقاء مظنون وغير متيقن . ونحن نرى من يموت طفلاً أو شاباً أو كهلاً . أما الآخرة فهى غير محدودة وهى متيقنة .

إن النعيم فى الدنيا يكون على مقدار تصور الفرد للنعيم وإمكانات الفرد فى تحقيق النعيم . وأما النعيم فى الآخرة فيكون على المقدار الذى أعده الله لعباده بطلاقة قدرته وسعة رحمته . فإن قارنا صفقة الدنيا بالآخرة لوجدنا أن متاع الدنيا على فرض أنه متاع هو قليل بالنسبة للآخرة .

إذن فالحق ينمى فينا قيمة الصفقة الإيمانية ، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلا يظنن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية ، أو ليستذله ، فالدين إنما جاء ليربب للمؤمن النفعية وينميها له .

ومثال ذلك عندما منع الدين واحداً أن يسرق الآخرين فهو قد منع أيضاً كل الآخرين أن يسرقوا من أى واحد ، وبذلك يكسب كل إنسان حماية الدين له ، فحين يمنع الواحد عن فعل خطأ فى حق الآخرين فهو قد منع الآخرين وهم ملايين أن يخطئوا فى حقه . فإذا قال الدين لواحد : لا تمد عينيك إلى محارم غيرك ، ففى هذا القول ما يوصى كل غير فى الدنيا : لا تمدوا أعينكم إلى محارم فلان ، فالكسب العظيم - إذن - يعود على الفرد .

وقول الحق : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » يوضح لنا عظمة الصفقة الإيمانية ، وبعد ذلك يؤكد لنا العدل فى قوله : « ولا تظلمون فتيلاً » ونعرف أن الفتيل هو ما فُتل من الأقذار حينما يدعك الإنسان كفيه معاً ، فيخرج ناتجا كالفتلة ، أو الفتيل هو الفتلة فى بطن النواة ، أى لا نظلم حتى فى الشىء التافه . والعدالة هنا بمشروطها ؛ لأن الله أوضح أن من يصنع السيئة يجازى بسيئة مثلها ، ومن يصنع حسنة يجازى بعشرة أمثالها أو أكثر .

وهكذا لا ترهق العدالة مؤمناً لأنها تأتى بفضلها ، فالحسنة بعشر أمثالها أو أكثر ، وتحسب الحسنة عند الله فى ميزان العدالة بما أخذ من الفضل ، فلا يقولن واحد : إن هناك عدلاً من الله بدون فضل .

إذن فقول الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » هو بضميمة الفضل إلى العدل . ولذلك نحن ندعو الله قائلين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، لأن مجرد العدل قد يتعبنا . وندعو الله : وبالإحسان لا بالميزان ، لأنه لو عاملنا بالميزان قد نتعب . وندعو الله : وبالجبر لا بالحساب ، والجبر هو أن يجبرنا الله ، وهكذا نرى أن قوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » بلاغ من الحق لنا : أننا سنعدل معكم بالفضل فتكون السيئة بواحدة ، وتكون الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر .

وقوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » يعني فيما قضى به سبحانه متفضلاً بالفضل مع العدل . وسبحانه يريد أن يطمئننا على أن قضايا الإيمان يجب أن يحافظ عليها ، فإياك أن تظن أن عملك هو الذي سيعطيك الجزاء ، إنما فضل الله هو الذي سيعطيك الجزاء . يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

فالفضل هو الذي يُفرح قلب المؤمن . ثم يأتي الحق سبحانه ليرد من بعد ذلك على قضية قالها المنافقون حينما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد ، ثم قتل من قتل من المسلمين ؛ فقال المنافقون : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ففهموا أن العندية عندهم حصن لهم من الموت ، وأن الذهاب إلى القتال هو الذي يجلب الموت . ونعرف أن كل حدث من الأحداث له زمان وله مكان ونسميه الظرف .

إن الذين درسوا « الظرف » في النحو يقولون : « ظرف زمان أو ظرف مكان » ، فكل حدث من الأحداث لا بد أن يوجد له زمان ومكان . والزمان في الموت مبهم والمكان في الموت أيضاً مبهم ، فظرف حدث الموت زماناً أو مكاناً مبهم ، وحين يبهم الله شيئاً ؛ فلا تظنوا أنه يريد أن يخفيه ويُغمضه علينا ، إن الحق يبهم الأمر ليوضحه أوضح بيان ، فالإبهام من عنده أوضح بيان ، كيف ؟.

إنه سبحانه حين يجهلنا بزمن الموت ويخفيه علينا فمعنى ذلك أن الإنسان قد يستقبل الموت في أي لحظة ، وهل هناك بيان أوضح من هذا ؟. فحين جهّلنا بزمن الموت فهو لم يمنع عنا معرفة زمنه ، ولكنه أشاع زمنه في كل زمن ، فلا أحد بقادر على

الاحتياط من زمن الموت ، وكذلك الحال فى مكان الموت .

وها هوذا الحق يقول :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾

والحق هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان فقال : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » فالعقل البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت ـ مكاناً ـ عليه أن يعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك ، فوجود الشخص عند ظرفٍ ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت ، فالعندية سواء فى معسكر الكفر أو فى معسكر الإيمان لن تمنع حدوث الموت .

والعندية ـ كما نعلم ـ تعطى ظرف المكان . فلطافة تغلغل الموت تخترق أى مكان وزمان مادام الحق قد قضى به . وأعداء الإنسان فى عافيته وفى حياته كثيرون ، لكن إن نظرنا إليها فى العنف نجدها تتناسب مع اللطف . فكلما لطف عدو الإنسان ودق ؛ كان عنيفا ، وكلما كان ضخما كان أقل عنفا . فالذى له ضخامة قد يهول الإنسان ويفزعه ، ولكن بإمكان الإنسان أن يدفعه . لكن متى يكون العدو صعباً ؟ . يكون العدو صعبا كلما صغر ولطف ولا يدخل تحت الإدراك . فيتسلل إلى الإنسان .

ومثال ذلك : هب أن واحداً يبنى بيتاً فى خلاء ويمر عليه إنسان ليبارك له وضع